أميرَة مَمْلَكَة الغُيوم

تأليف: علي غازي حبيب
رسم: رشا عدنان محمود

كان يا ما كان في قَديمِ الزَّمان، أميرَةٌ صَغيرَةٌ جَميلَة، تَعيشُ في مَمْلَكَةٍ بعيدَةٍ فَوْقَ الجِبالِ العالِيَة. كانَتِ المَمْلَكَةُ مُحاطَةً بِأسْوارٍ مُرْتَفِعَةٍ، وتَلُفُّها الغُيومُ مِنْ كُلِّ جانِب، لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِالإمْكانِ رُؤْيَتُها، لِأنَّها كانَتْ مُخْتَبِئَةً خَلْفَ تِلْكَ الغُيوم.

الأميرَةُ الصَّغيرَةُ ذاتُ الشَّعْرِ الذَّهَبِيِّ المُجَعَّدِ كانَ لَدَيْها تاجٌ صَغير، مُرَصَّعٌ بِالأحْجارِ الكَريمَة، و كانَتْ تُحِبُّه كَثيرًا، وتَضَعُهُ عَلى رَأْسِها دَوْمًا حينَ تَخْرُجُ مِنَ القَصْرِ لِتَلْعَبَ في الحَديقَةِ وبَيْنَ الأشْجار.

نُقِشَ عَلى هذا التّاجِ اسْمُها: «الأميرَةُ مايا الجَميلَة، أميرَةُ مَمْلَكَةِ الغُيوم».

لَمْ يَكُنْ لِلأميرَةِ أصْدِقاءُ إذْ كانَتْ تَعيشُ وحيدَةً معَ أبيها وأُمِّها في المَمْلَكَة. اتَّخَذَتِ الأميرَةُ مِنَ الأشْجارِ والزُّهورِ والعَصافيرِ والسَّناجِبِ الَّتي كانَتْ تَعيشُ في حَديقَةِ المَمْلَكَةِ أصْدِقاءَ لَها.

في أطْرافِ المَمْلَكَة، كانَ هُناكَ نَبْعُ ماءٍ عَذْب، تَنْسابُ المِياهُ مِنْه، وتَجْري عَبْرَ جَدْولٍ صَغير، تَشُقُّ طَريقَها عَبْرَ الحَديقَةِ الواسِعَة، لِتَخْرُجَ مِنْ خِلالِ فَتْحَةٍ في أحَدِ الأسْوار، وتَنْحَدِرَ عَبْرَ الجِبالِ والغُيومِ المُحيطَة، إلى أنْ تَصُبَّ في البَحْر.

ذاتَ يَوْم، خَرَجَتِ الأميرَةُ بِرِفْقَةِ حِصانِها الصَّغيرِ لِتَتَنَزَّهَ في الحَديقَة، فَوصَلَتْ مَعَهُ إلى نَبْعِ الماء. أخَذَ الحِصانُ يَأْكُلُ مِنَ الأعْشابِ الخَضْراءِ الغَضَّةِ الطَّرِيَّةِ النّامِيَةِ بِجانِبِ الجَدْوَل، وجَلَسَتِ الأميرَةُ تَسْتَمِعُ إلى صَوْتِ المياه المُنْسابةِ في الجَدْولِ.

نَظَرَتِ الأميرَةُ إلى الضِّفَّةِ المُقابِلَة، فَوجَدَتْ مَجْموعَةً مِنَ الزُّهورِ الحَمْراءِ الجَميلَةِ تَتَراقَصُ سَوِيًّا مَعَ نَسَماتِ الهَواءِ العَليل. أرادَتْ أنْ تَجْتازَ الجَدْولَ، وتَذْهَبَ إلى الضِّفَّةِ الأُخْرى لِتَقْطِفَ باقَةً مِنَ الزُّهور، وتَصْنَعَ مِنْها عِقْدًا جَميلًا.

ولمّا اقْتَرَبَتْ مِنَ الجَدْولِ قالَ لَها العَنْدَليب: «يا صَديقَتي الأميرَة اِحْذَري، إنَّ الصُّخورَ الَّتي سَتَدوسينَ عَلَيْها زَلِقَةٌ ورُبَّما سَتَقَعينَ في المِياه».

قالَتْ لَهُ: «لا تَقْلَقْ أيُّها العَنْدَليبُ أنا أسْتَطيعُ القَفْزَ والتَّوازُن».

قَفَزَتْ فَوْقَ الصَّخْرَةِ الأولى وتَوازَنَتْ بِشَكْلٍ جَيِّد.

ومِنْ ثَمَّ قَفَزَتْ فَوْقَ الصَّخْرَةِ الثّانِيَةِ الَّتي كانَتْ زَلِقَةً جِدًّا فَكادَتْ أنْ تَسْقُط، ولَكِنْ لَمْ يَسْلَمْ تاجُها فَسَقَطَ مِنْ عَلى رَأْسِها في الماءِ وسَحَبَتْهُ المِياهُ بَعيدًا.

حَزِنَتِ الأميرَةُ حُزْنًا شَديدًا وانْهَمَرَتِ الدُّموعُ فَوْقَ وجْنَتَيْها وعادَتْ إلى القَصْرِ باكِيَةً قَلِقَةً حَوْلَ مَصيرِ تاجِها الضّائِع.

هُناكَ عَلى الشّاطِئِ البَعيد، حَيْثُ يَصُبُّ الجَدْولُ القادِمُ مِنْ مَمْلَكَةِ الغُيوم، كانَ يَعيشُ صَيّادُ سَمَكِ نَشيطٌ مَعَ ابْنِهِ الصَّغيرِ «تامر». يَخْرُجانِ سَويًّا قَبْلَ شُروقِ الشَّمْسِ لِيَنْشُرا شِباكَهُما في البَحْرِ لِاصْطِيادِ الأسْماكِ وبَيْعِها في سوقِ القَرْيَة.

عَلَّمَ الصَّيّادُ ابْنَهُ السِّباحَةَ وفُنونَ صَيْدِ السَّمَكِ وصِناعَةَ الشِّباكِ. وعَلَّمَهُ أيْضًا الغَوْصَ والبَحْثَ عَنِ المَحارِ واللُّؤْلُؤ.

في أحَدِ الأيّامِ في بِدايَةِ النَّهار، ومَعَ سُطوعِ ضَوْءِ الشَّمْس، وهُدوءِ أمْواجِ البَحْرِ ومِياهِهِ الصّافِيَة، وبَيْنَما كانَ تامر و والِدُهُ في رِحْلَةِ الصَّيْدِ المُعْتادَة، وبَعْدَ أنْ نَصَبا شِباكَ الصَّيْد، قَفَزَ تامر مِنَ القارِبِ وأخَذَ يَسْبَحُ بِجِوارِه.

وبَيْنَما هو عَلى هذه الحال، رَأى شَيْئًا يَلْمَعُ في قاعِ البَحْرِ لَفَتْ انْتِباهَه، فَقَرَّرَ الغَطْسَ لِيَعْرِفَ ما هو هذا الشَّيْء.

حَبَسَ أَنْفاسَهُ وبَدَأ يَغوصُ بِاتِّجاهِ البَريقِ حَتّى وصَلَ إِلَيْه، والْتَقَطَ ذَلِكَ الشَّيْء، ثُمَّ سَبَحَ سَريعًا نَحْو سَطْحِ الماءِ .

نَظَرَ إلى ما بَيْنَ يَدَيْهِ فَوجَدَ تاجًا صَغيرًا جَميلًا، قَلَّبَهُ وأخَذَ يَتَفَحَّصُهُ، فَرَأى ما كانَ مَنْقوشًا عَلَيْهِ:

الأميرَةُ مايا الجَميلَةُ .. أميرَةُ مَمْلَكَةِ الغُيومِ.

سَألَ أباهُ الصَّيّادَ: «يا أبي أيْنَ هِيَ مَمْلَكَةُ الغُيومِ؟».

قالَ لَهُ أبوه رافِعًا يَدَهُ مُشيرًا نَحْو الجِبالِ المُرْتَفِعَةِ الّتي تَلُفُّها الغُيومُ: «يا بُنَيّ... هُناكَ وفي أعالي تِلْكَ الجِبالِ وخَلْفَ تِلْكَ الغُيومِ يُحْكَى عَنْ وُجودِ مَمْلَكَةٍ تُدْعى مَمْلَكَةَ الغُيومِ، ولَكِنَّ أحَدًا لَمْ يَصِلْ إلى هُناكَ لِيَعْرِفَ

ما إنْ كانَتْ مَوجودَةً حَقًّا أمْ لا..!

فَنَحْنُ، مَجْموعَةَ الصَّيّادينَ، لا نَسْتَطيعُ تَرْكَ عَمَلِنا

هُنا لِلصُّعودِ والاسْتِكْشافِ، فَالأسْماكُ لَنْ تَنْتَظِرَنا

لِنَصْطادَها، والصَّيّادونَ لَنْ يَتْرُكوا لَنا شَيْئًا إنْ لَمْ نَذْهَبْ

لِلصَّيْدِ باكِرًا».

ذَهَبَ العَديدُ مِنّا إلى الجِبال، ولكِنَّهم عادوا عِنْدَما

وصَلوا إلى مِنْطَقَةِ الغُيوم، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أحَدٌ تَجاوُزَها

وبَعْضُهُمْ تاهَ هُناكَ ولَمْ يَعُدْ أبَدًا.

أخْفى الصَّيّادُ الصَّغيرُ التّاجَ عَنْ أبيهِ ولَمْ يُخْبِرْهُ بِما

وَجَد، وعِنْدَما عادا إلى المَنْزِلِ مَعَ صَيْدٍ مِنَ الأسْماكِ

الوَفيرَة، جَلَسَ الولَدُ يُفَكِّرُ بِتِلْكَ المَمْلَكَةِ البَعيدَة،

والأميرَةِ صاحِبَةِ التّاج، وقَرَّرَ الذَّهابَ في اليَوْمِ التّالي

إلَيْها، على الرُّغْمِ مِنْ بُعْدِها ومَشَقَّةِ الطَّريق.

مَعَ طُلوعِ الفَجْرِ اسْتَيْقَظَ الولَدُ باكِرًا. أخَذَ أحَدَ الحِبالِ الَّتي كانَ يَسْتَخْدِمُها أبوهُ لِرَبْطِ القارِبِ، وأخَذَ مَعَهُ مِرْساةً صَغيرَةً وبَعْضَ الطَّعامِ والماءِ ولَفَّ التَّاجَ بصُرَّةٍ صَغيرَةٍ وضَعَها عَلى ظَهْرِه، وشَقَّ طَريقَهُ نَحْو الجِبالِ بِمُحاذاةِ مَجْرى المِياهِ القادِمَةِ مِنْ هُناك.

كانَ الطَّريقُ الجَبَلِيُّ شاقًّا عَلَيْهِ ولَكِنَّهُ أبى أنْ يَسْتَسْلِم، وفي كُلِّ خُطْوةٍ كانَ يُلاحِظُ قُرْبَهُ مِنَ الغُيوم.

مَضى، عَلى سَيْرِه، وقْتٌ طَويل، أنْهَكَهُ التَّعَب، و قارَبَتِ الشَّمْسُ عَلى الغُروب، فَجَلَسَ بِالقُرْبِ مِنْ شَجَرَةِ توتٍ كَبيرَةٍ وتَناوَلَ طَعامَه. غافَلَهُ النَّوْمُ إلى أنْ اسْتَيْقَظَ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي مَعَ زَقْزَقَةِ العَصافير، وخُيوطِ الشَّمْسِ الأولى.

أكْمَلَ طَريقَهُ صُعودًا، وبَعْدَ عِدَّةِ ساعاتٍ وصَلَ إلى مَنْطِقَةِ الغُيومِ، وكانَ الدُّخولُ إليها أمْرًا صَعْبًا لِأَنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَرى الطَّريقَ أمامَه. جَلَسَ يُفَكِّرُ كَيْفَ يَتَجاوزُ هذه المَنْطِقَة، وبَيْنما هو يُفَكِّر، والصُّوَرُ في خَيالِهِ تَدور، تَذَكَّرَ رِحْلاتِ الصَّيْدِ والسِّباحَةِ وكَيْفَ وجَدَ تاجَ الأميرَة.

فَجْأة، قَفَزَ في الهَواءِ وقال: «وجَدْتُها!». قَرَّرَ السِّباحَةَ في مَجْرى الجَدْولِ الصَّغيرِ لِيَصِلَ إلى مَنْبَعِهِ لِأَنَّهُ لَنْ يَضيعَ في الغُيوم، فَطَريقُ الجَدْولِ واحِدَةٌ لَها اتِّجاهٌ مُحَدَّد.

لَفَّ الحَبْلَ حَوْلَ خَصْرِهِ وعَلَّقَ بِهِ المِرْساةَ الصَّغيرَةَ وبَدأ السِّباحَةَ في الجَدْولِ عَكْسَ التَّيّار، كانَ ذَلِكَ مُتْعِبًا ولَكِنَّهُ سَبّاحٌ ماهِرٌ اسْتَطاعَ أنْ يُقاوِمَ تَيّارَ الماء، ولِحُسْنِ حَظِّهِ لَمْ تَكُنْ مِنْطَقَةُ الغُيومِ كَبيرَة، والمَسافَةُ كانَتْ قَصيرَةً عَلَيْهِ سِباحَة.

وجَدَ نَفْسَهُ أمامَ السّورِ المُرْتَفِع، رَبَطَ المِرْساةَ بِالحَبْلِ ولَوَّحَها في الهَواءِ ورَمى بِها إلى أعْلى السّورِ لِتَعْلَقَ بِهِ وبَدَأ بِتَسَلُّقِه، سَحَبَ الحَبْلَ ورَمى بِهِ مِنَ النّاحِيَةِ الأُخْرى لِيَسْتَطيعَ النُّزولَ عَلَيْه.

عِنْدَها وصَلَ إلى حَديقَةِ القَصْرِ الكَبيرَة. تَجَوَّلَ في أنْحائِها، أدْهَشَتْهُ النَّباتاتُ والأشْجارُ والزُّهورُ الَّتي كانَتْ مَزْروعَةً بِها فَهُو لَمْ يَرَ مِثْلَها مِنْ قَبْل.

بَيْنَما هو في تَجوُّلِهِ سَمِعَ صَوْتًا ناعِمًا ولَكِنَّهُ كانَ صَوْتًا حَزينًا.

اتَّجَهَ إلى مَكانِ الصَّوْتِ الآتي مِنْ خَلْفِ الشُّجَيْراتِ الخَضْراء، فَوجَدَ فَتاةً صَغيرَةً تَرْتَدي فُسْتانًا جَميلًا تَبْدو كَالأميرات.

وفِعْلًا كانَتْ هي الأميرَةُ مايا تَجْلِسُ فَوْقَ عُشْبِ الحَديقَةِ الأخْضَرِ وتُغَنّي بِصَوْتٍ حَزين: «تاجي الجَميلُ سَقَطَ في الماء. تاجي الجَميلُ سَقَطَ في الماء».

حَزِنَ لِرُؤْيَتِها عَلى هذه الحالِ فَقَفَزَ مِنْ فَوْقِ الشُّجَيْراتِ وقالَ لَها:

«مَرْحَبًا أَيَّتُها الأميرَةُ لَقَدْ وجَدْتُ التّاجَ وجَلَبْتُهُ لَكِ»،

فَتَحَ الصُّرَّةَ الصَّغيرَةَ وأخْرَجَ التّاجَ مِنْها وقَدَّمَهُ لِلأميرَةِ الَّتي ذُهِلَتْ تَمامًا، وشَعَرَتْ بِالخَوْفِ مِنْ هذا الولَدِ الغَريبِ الَّذي فاجَأها.

قالَتْ لَهُ: «مَنْ أنْتَ؟! ومِنْ أيْنَ أتَيْتَ؟! وكَيْفَ وجَدْتَ تاجي؟!».

قالَ لَها: «أنا أسْكُنُ بِالقُرْبِ مِنَ البَحْرِ وأبي صَيّاد».

ورَوى لَها كَيْفَ كانَ في رِحْلَةِ الصَّيْدِ ووجَدَ تاجَها في البَحْر.

جَلَسا سَوِيًّا في الحَديقةِ وتَحدَّثا طَويلًا وأخْبَرَتْهُ الأميرَةُ أنَّ لا أصْدِقاءَ لَها في هذه المَمْلَكَةِ سِوى الحَيَواناتِ والنَّباتات.

مَدَّ يَدَهُ لَها مُصافِحًا وقال: «أنا أسْتَطيعُ أنْ أكونَ صَديقًا لَكِ».

ابْتَسَمَتِ الأميرَةُ وفَرِحَتْ جِدًّا فَلَقَدْ وجَدَتْ تاجَها الضّائِعَ وكَذَلِكَ وجَدَتْ صَديقًا جَديدًا.

أخْبَرَها الصَّيّادُ الصَّغيرُ عَنْ مَشَقَّةِ الطَّريقِ في الصُّعودِ وكَيْفَ سَبَحَ في النَّهْرِ الصَّغيرِ وتسلَّقَ السّور. وفَجْأةً، قال: «حانَ وقْتُ رَحيلي، أُريدُ أنْ أعودَ إلى الشّاطِئ، فَقَدْ يَكونُ أبي قَلِقًا عَلَيّ، فأنا لَمْ أُخْبِرْهُ بِقُدومي إلى هُنا».

قالَتْ لَهُ الأميرَة: «لا تَقْلَقْ سَأُساعِدُكَ».

نادَتِ الأميرَةُ حِصانَها الصَّغيرَ وقالَتْ لَه: «اِذْهَبْ مَعَ صَديقي، أوْصِلْهُ إلى بَيْتِهِ كَيْ لا يَتَأخَّر».

رَكِبَ الولَدُ عَلى الحِصانِ وقَبْلَ أنْ يَنْطَلِقَ قالَتْ لَهُ الأميرَة: «سَأُراسِلُكَ عَبْرَ هذا الجَدْول، سَأكْتُبُ لَكَ رَسائِلي، وأضَعُها في قارورَةٍ مُحْكَمَةِ الإغْلاق، وأرْميها في المِياهِ الَّتي سَتَحْمِلُها إلَيكَ».

وبَيْنَ الحينِ والآخَر، سَيَزورُكَ العَنْدَليبُ لِيَطْمَئِنَّ عَلَيْكَ، ويَرى إنْ كُنْتَ تَرْغَبُ بِزِيارَتي، فَأُرْسِلُ لَكَ الحِصانَ لِيَأْتِيَ بِكَ إلى هُنا.

ابْتَسَمَ الصَّيّادُ الصَّغيرُ وشَكَرَها عَلى كُلِّ شَيْء، ووعَدَها بِإرْسالِ الأسْماكِ اللَّذيذَةِ لَها، وتَعْلِيمِها السِّباحَةَ وصَيْدَ السَّمَكِ عِنْدَما تَأْتي لِزِيارَتِهِ عندَ الشّاطِئ.

وضَعَتِ الأميرَةُ التَّاجَ عَلى رَأْسِها مُجَدَّدًا وابْتَسَمَت، ورَفَعَتْ يَدَها مُلَوِّحَة.

وقالَت: «إلى اللِّقاءِ يا صَديقي تامر الصَّيّادُ الصَّغير».

وَانْطَلَقَ الحِصانُ بِاتِّجاهِ البَحْر.